القصص

من الواقع

طارق الليل

للأستاذ أديب عباسى

كان ذلك فى ليلة من ليالى الحرب الكبرى وفى شطرها الأخير ، وكنا يومئذ لا نعلم من أهوال ذلك الصراع العنيف إلاّ مايستطيع الصغار — ومارُكّب فى رءوسهم من عقول محدودة — أن يعلموا . فلم تكن الحرب عندنا إذ ذاك إلا تلك الفترة وذلك الوجوم يعلوان وجوه الكبار ، وإلا ذلك القلق المقيم فى اللحاظ ، وتلك الهمسات يتبادلونها فيما بينهم ، ولا ينون فى التلطف حيناً والمخاشنة حيناً آخر ، ليصرفونا عن الاستماع والاصغاء اليها . ولكنها كانت محاولات فاشلة ، إذ ليس شيء أعلق بنفوس الصغار وأخلب للبّهم وألصق بخيالهم وأدعى لفضولهم من حديث يتسارّ به الكبار فيما بينهم ، ثم يُراد لهم ألا يُلمّوا منه بشيء . فكنا — لنرضيهم ونأمن مناكدتهم — ننأى ونصد عنهم لا عبين ظاهراً ، ونتكفئ عليهم بالسمع نرهفه لنلتقط ما يتسارّون به ويتهامسون . فلم يكن يفوتنا شيء من أحاديثهم عن الحرب ، وما يقدرونه لها من استطالة ، وما يترقبون من مفاجآت ، ومايخشون من عواقب ، وما يتوجهون به من عطف ، وتمنى الانتصار لهذه الدولة أو لتلك .

على أن أظهر ما كان يبدو من آثار الحرب هو ما كنا نلمحه من مظاهر الفاقة والحاجة الى الغذاء ؛ وهو أثر ليس للتجمل والابتسام المقسور عليه حيلة . فالحزن والغضب ، والحب والفرح ، والبغض والعطف ، والكره والحقد والخوف ، جميعها يستطيع المرء بالمران والممارسة أن يروض نفسه على إخفائها ، بل والظهور معها فى عكس مظاهرها الصحيحة . ولكن الجوع اذا أزمن لا يستطيع وجه أن يخفيه مهما رُزق صاحبه من قدرة على الاخفاء وحيلة فى التمويه .

أقول : كان هذا أكثر مظاهر الحرب بُدُوّاً عندنا وأشدها بروزاً : وماذا ينتظر ممن كان فى سننا وفى مثل خبرتنا غير هذا ؟ وهل كان بوسعنا أن نستشرف من حوادث ذلك النضال غير هذا الأثر الذى لم يستجد علينا مع الحرب غيره ؟ فى الحق أننا لم نكن نعى من معانى تلك الحرب فى ذلك الحين سوى أنها شدة تقاسى فيها المعدة وتوابعها أشد مايقاسى ، وهى نظرة لم تكن من الضحولة وقرب الغور على قدر ما حسبنا لها فيما بعد ، حينما بدأنا نقرأ عن الحرب فى بطون الكتب وفى ثنايا الخطب ! وهذا فى الحق مما يُحسب للطفولة من بداهة مسدّدة وإلهام صادق . ومن منا يشك بأن أقسى ماقاساه الناس عموماً فى الحرب هو الجوع ، حتى بين الجنود الذين كانت تشويهم نيران المدافع وتجزّهم قذائفها !

***

أوينا الى فراشنا ليلتئذ على هدهدة قبضة من الأخبار المتناقضة عن الحرب مما ترشّح الى البلدة النائية . وكنا نتلقى هذه الأخبار

وقد خلفت « مدام كورى » وراءها ابنتها مدام « جوليو » زوجة العالم الفرنسى الاستاذ « جوليو » . وهى كوالديها شغوفة بالبحوث العلمية ، وهى تسلك نفس الدرب الذى شقه والداها من قبل . فقد أجرت مع زوجها فى سنة ١٩٣١ بعض تجارب فى اطلاق « الدقائق الالفية » على عنصر « البريليوم » مما كان من نتيجته الوصول الى معرفة أحد الاحجار البنائية فى الكون وهو « النترون » . فان لازمها التوفيق فسيكون للعلم « مسيو ومدام كورى » آخران ؟

مصطفى محمود حافظ
مدرس بمدرسة المعلمين بامبابه

فى كثير من الاستمتاع واللذة . وما هو إلا أن أغمضنا أجفاننا حتى نُقلنا من عالم الواقع المنغص الى عالم الأحلام والرؤى اللذيذة : من عالم الحرمان الى عالم الرغائب المحققة والمتع الدانية . فكان لنا من شهى الحلوى التى حرمتنا الحرب ما نشتهى ، ومن طريف اللعب التى غابت مع الحرب ما نختار . على أنها كانت لعباً من نوع آخر غير الذى ألفنا . فهى لعب صورها مشتقة ومؤلفة من الأوصاف التى كانت توصف بها أدوات الحرب يومئذ : طيارات تئز فى الفضاء ، وسيارات تنهب الأرض وتتخطف الأميال ، ودبابات تجوز الوهاد وتتخطى العقبات ، وأمور أخرى شتى .

وكنا فى يومنا يشنّ بعضنا الغارات على بعض ، وسلاحنا هذه الأدوات التى أعارها لنا الخيال ، فلم يكن يكلفنا اقتناؤها جهداً ولا نقداً ، إلا أنها متع لم تدم ، وأحلام رُوّعت ؛ فقد هببنا مذعورين بعد موهنٍ من الليل على طرق يُوالى دراكاً على باب أحد الجيران . وأصخت بملء جوارحى أتبين ضوضاء السيارات وقعقعة المدافع ، ورغاء الطيارات ، فيتصل ما بين يقظتنا والمنام : وهى الصورة التى تبادرت حالاً الى الذهن بعد ذلك الليل الحالم وبعد تلك الانكسارات والانتصارات التى عالجناها نياماً .

وأطلت فيمن أطلّ من خصاص الباب نتبين الأمر ونجتلى الواقع ، وكلٌّ فى ذهنه — على ما أقدّر — صورة تباين ما فى ذهن الآخر تبعاً لأول بوادر الخيال المروّع والبداهة المجفلة . ولم تلق صعوبة فى تبين الطارق ؛ فقد كانت ليلة قمراء فائضة النور كشفت لنا عن شخص فى بقية أثواب لا ينفكّ يقرع الباب بجمع يده قرعاً فيه عنف وفيه شدة ، يصيح بين الفينة والفينة فى نبرات شديدة يطلب فيها فتح الباب ممن كان وقتها وراء الباب

أما صاحبنا الذى كان الطارق يقصده بالطرق ، وبهذه الصيغة الآمرة بفتح الباب ، فقد ذهب به الخيال مذهباً آخر . وهل يتجه فى مثل هذا الحال الى غير اللصوص خيالٌ من امتلأت صناديقه بالذهب وفاضت بالأصفر الرنان ؟ إن صاحبنا كان على ثروة لا بأس بها فى مثل ذلك العهد . فقد كان صاحب مطحنتين ، وكان لا يتخلّى عن صاع القمح بأقل من خمسة مجيديات ، ليس من طمع أو جمود عاطفة كما كان يقول ، بل لأنه حلف حلفة لا يبيع الصاع بأقل من هذا المقدار ! ! فكانت تجيئه المرأة وبيدها الخمسة مجيديات تنقص بضعة قروش تروم بها دفع أجور الطحن فى مطحنته ، فيبادرها بهز الرأس مشيراً فى أسف الى يمينه التى أقسم والتى ستجرّه إن هو حنث بها الى الجحيم !

أيقن صاحبنا إذن أن لصاً شديداً جاء يقتحم عليه الدار عنوة ، وإذن فليتحصن ما تيسر له أن يتحصن ، وليتخذ من العدّة كل ما يستطيع من عدة ، وليضع من الصناديق وراء الباب ما يضع ، وليأخذ بيده مسدسه محشواً ، وليوسّط بينه وبين الباب أمه العجوز يترّس بها ، ففى جسمها الدسم الغنى بالشحم واللحم ، وفى قامتها العريضة المديدة وقاء له خير وقاء إذا همّ هذا الواغل بشىء من خلف الباب ، وتشجع صاحبنا المحاصر ونادى بصوت كالحشرجة : مَن الطارق ؟ ! من الطارق ؟ ! فجاءه الجواب زيادة فى الطرق ولجاجة فى النداء والطلب . وتكرر السؤال الذى جعله الرعب على وتيرة واحدة ، وتكرر الجواب الذى جعله الاصرار على وتيرة واحدة أيضاً .

* * *

وقال كبيرنا : ليس هو باللص الذى يخشى . وعهدنا باللصوص لا يقتحمون المنازل على السكان ، بل هم يتسللون اليها فى غفوة من الناس وغفلة من الحراس . وهو كذلك ليس بالسائل والعهد بالمتسولين يقرعون الأبواب قرعاً خفيفاً فى أبصار غضيضة ، ورؤوس منكسة ، وأصوات خفيضة لا تكاد تبين ، الاّ الأغرار منهم الذين لم يجربوا ولم يعرفوا من طباع البشر ما يعرف المتسولون المجربون .

ولم نشأ أن نطيل الحدس والتخمين ، فتوجه كبيرنا إلى الطارق وسأله فى جفاء ماذا يريد فى ذلك الهزيع من الليل ، ولم ذلك القرع العنيف والنداء الصاخب ؛ فأجاب فى نظر شارد وفى غير أناة :

لقد مضى على ثلاثة أيام لم أطعم طعاماً ، فأوشكت أن أهلك وقد طرقت فيمن طرقت حياً من أحياء الاعراب المخيمين فى ضاحية البلد الجنوبية على بعد غلوتين أو ثلاث ، فوصفوا لى هذه الدار من البلدة ، وقالوا انك واجد هناك قوتاً ومأوى ليلتك هذه ، وعساى لم أخطىء الاستهداء ..

وهم كبيرنا ليدخله بعد الذى عرف من أمره دون أن يزيد فى

سؤاله ، فينال بعض الطعام ويبيت ليلته . غير انه حدث فى هذه اللحظة ماراعنا جميعاً : ذلك أن صاحبنا المحاصر ، بعد أن أنس إلى أصواتنا ولهجة الحديث الذى دار بيننا ، أيقن أن الأمر من الخطورة على غير ما توهم وجسم له الخيال الزائغ . ففتح الباب بعنف ظاهر ، والمسدس يلمع فى قبضة يده والعصا فى قبضة يده الأخرى ، ولم يتريث لنوضح له جلية الأمر ، بل أقبل على المسكين بهراوته الثقيلة وانهال يكيل له بلا حساب حتى كاد يقضى عليه بين أيدينا ، لولا أن لطف المولى وتداركه برحمته فسقط مما ناله بين أيدينا التى جعلنا منها شبه حاجز بين عنف الرجل المهاجم وضعف هذا الطارق . ولم يستطع صاحبنا معها أن يستعمل العصا فاندفع يكيل له بقبضة يده حيثما وجد سبيلاً إلى ذلك من بين أيدينا . وأدرك كبيرنا أى شىء يصير إليه الرجل إذا لم يحل حيلولة تامة بينه وبين مهاجمه المحنق ، ولم تسعفه سنه من أول الأمر فى تخليص الرجل ، فلجأ أخيراً إلى أسلوب فيه شى من القسوة ، ولكنه الأسلوب الذى لم يكن بالامكان ارتجال ما يفضله فى هذا الظرف الحرج . فقد أمسك بتلابيب الرجل وجره إلى حيث استطاع أن يوقيه من لكمات مهاجمه الذى أراد أن يثبت لنا بعد ذلك الموقف من الجبن أنه على شىء كثير من البأس والاقدام

وبعد أن هدأ روع الرجل وتناول بعض الطعام أقبلنا نلومه مشفقين ، وسألناه ما شأنه ولِمَ لم يختر له غير ذلك الأسلوب الغريب للاستجداء واستدرار العطف . فأجاب عن أسئلتنا جميعاً بقوله :

إننى جندى من فلول الجيش التركى فى فلسطين ، طوح بى السير إلى هذه البلاد بعد أن نال منى الجوع والتعب أقصى ماينالانه من حى . فقد كنت لقلة خبرتى بالطرق أسير من البلد الواحد أبنى بلداً آخر فأنتهى غالباً حيث أبتدىء ، وأبتدىء حيث أنتهى . وكنت حيناً أصيب طعاماً أو شيئاً شبيهاً بالطعام وأحياناً أمضى ساغباً أياماً لايخالط الماء فى جوفى شىء من الزاد ، وآخر عهدى بالطعام — كما أخبرتكم — كان منذ ثلاثة أيام . فقد استجديت واستجديت ، مصطنعاً كل أساليب الخشوع وأنواع الضراعة ، ولكن فى غير طائل . وأخيراً وصلت ذلك الفريق من الأعراب فوصفوا لى هذه الدار ، فآليت لا أصبر زيادة عما صبرت فاما شبع يرد إلى الحياة ، أو موت أرتاح معه من ذلة السؤال وآلام الجوع . وعوّلت على أمر . قلت أبادر أصحاب الدار بالعنف والصياح : فان كانت فيهم بقية من رحمة وأثارة من انسانيـة لم يمنعهم صياحى إذا ما شاهدوا ما أنا فيـه ، من الرثاء لحالى والجود على بشىء . وان كانت الأخرى وكانوا كبقية الناس نالنى منهم ما أرجو معه أن أضع حداً لهذه الحياة المثقلة . وحياة الجندى — كما قد تعلمون — لاتساوى فى هذه الأيام شيئاً ، ولا تعسر على أحد ، ولولا كم — جزيتم خيراً على كل حال — لكانت هذه آخر ليالى من الشقاء .

ولحظت عند هذا الحد من حديث الرجل الدمع يجول فى عينيه بين متحير ومتحدر ، يهبط به الحزن لحظة ، وتكفكفه الرجولة أخرى . وكأنه آنس منى عطفاً صادقا عليه وإشفاقاً على ماصار اليه ، فأقبل على يحدثنى ويبثنى شكواه . وأغلب اليقين أنه لم يكن يعتقد أننى مدرك الى أى الأغوار والاعماق النفسية تنحدر آلامه وأشجانه . إلا أن ذلك لم يكن بمانعه قط عن الحديث . والمرء اذا زخرت نفسه بالألم وأترعها الحزن تحدث الى كل شىء ، تحدث الى نفسه ، تحدث الى سواه ، تحدث الى الأطفال ، تحدث الى الحيوان ، تحدث الى الجماد ، تحدث الى لاشىء . فكأن المرء فى ذلك الأناء يمتلىء فيفيض بالزائد على ماحوله .

كشف الجندى عن صدره وأرانى أثر جرحين أو ثلاثة ، وكشف عن ساقه وأرانى مثل ذلك وشرع يقول : أترى ياولدى؟ هذا بعض نصيبنا من هذه الحرب . هذا بعض ماأصابنى . ولكننى كنت كلما اصبت أتغلب على آلامى وأتحامل على نفسى فألوذ بربوة أو اهبط حفرة تقينى زيادة الأذى الى أن ينصرف العدو أو يزول الخطر ، فأقوم اذا كنت قادراً ، أو أحمل الى حيث أعالج ، لأعود الى القتال أمضى عزيمة وأشد بأساً . ولكن الزمن — يابنى — والجوع والخذلان ، قد ذهبت بالكثير من قوانا وصبرنا ، فعدنا لايهمنا أكنا فى الطليعة أم فى المؤخرة . وأخيراً رأيتنى على غير ارادة منى أتخلف عن الجيش وأهيم على وجهى فى غير قصد أو اتجاه ، الى أن انتهى بى المطاف الى هذا البلد ثم هذه الدار ، فنالنى ما نالنى على يدى ذلك العلج الذى كاد يميتنى بهراوته . . . أهذا ياولدى جزاء هذه الجراح ؟ أهذه خاتمة الجندى الذى يدفع عنكم

عدوان الأعداء بدمه وحياته ؟ ! إنى من غدى مسلم نفسى الى أقرب سلطة عسكرية تفعل بى ماتشاء . ذلك خير لى وأبقى .

والتفت اليه عند هذا الحد من حديثه وخاطبته متحمساً :

نعم ! ذلك أفضل ياعماه . لو كنت محلك ما فعلت غير هذا . انك هناك لا تضرب بالعصى على ما أعتقد ولا تجر على الأرض :

ونظر الى المسكين نظرة ذاهلة حزينة وقال :

نعم يا بنى ، سوف لايضربونى بالعصى ، لأن العصى ليست جزاء من يتخلف عن واجبه فى الجندية ! إنما هى قطع من الرصاص صغيرة يدفنونها فى أحشائنا أو يولجونها فى رؤوسنا ، فنضحى وكأن لم نكن . ولكن يميناً غموساً لن يحول هذا دون ما أنا عازم عليه من غدى !

وخيل الى كأنى أدركت معنى هذا الكلام الغريب فراعنى من الرجل هذا العزم ، ونظرت اليه فى رعب ظاهر وذعر متوسل ، وبعد لحظة من الصمت خيل الى فيها أن الرجل يتذكر أموراً ويستعيد صوراً رفع عينيه وقال :

كلا ياولدى الصغير ! كلاً ! سأجاهد اذاً فى سبيل الحياة ، سأحاول أن أعيش . إن لى صغيراً فى سنك . لقد نسيته حينما أقسمت ، ولكننى الآن أذكره . انه ينتظرنى الآن : ينتظر أن يطوقنى بيديه الصغيرتين . سأعيش ، سأعيش

وانحدر الدمع المعلق فى مقلتيه منذ حين ، وذهب يسير فى أخاديد وجهه المجعد . وكان بعضه يقع على الأرض وبعضه الآخر تتلقاه كفه وفيها قِدّة من القماش أخذها من بقية قميص على صدره

وعدت الى فراشى وليس أقر منى عيناً ، وليس أدمى منى قلباً كذلك .

اديب عباسى

المغفل المخدوع

« إذا أصيب الرجل بداء الغفلة فقد الثقة من نفسه ، وعاد لا ينظر بعينه ، ولا يسمع بأذنه ، ولا يفكر بعقله »

أولع ملك من الملوك بالجديد من الثياب ، فكان يتأنق فى لباسه التأنق كله ، وأصبح لا يرى اللذة إلا فى الاغراب فيه ، وكثرة الانفاق عليه ، وما كان يعبأ بعد ذلك بأمر أمته ، فترك الجند هملاً ، وهم حصن الأمة وسلسلتها الفقرية ، واحتقر علماء الدنيا والدين ، وهم مصابيح الكون يضيئون الحياة ، ويبصرون الناس بسبلها المعوجة وطرائقها العجيبة ؛ وكان لا يذهب الى التمثيل حباً فيه ، وإنما ليعرض على الناس زخرف ملبسه وجميل هندامه ، وكان لا يخرج للنزهة ترفيهاً لأعصابه واستمتاعاً بجمال الطبيعة ، وإنما ليدهش من يقابل ، ويثير فيه عاطفتين : العجب من تأنقه ، والاعجاب بذوقه .

مرت الأيام هادئة فى حاضرة الملك الواسعة ، وأخذ يأتيها الناس من كل فج عميق . وفى ذات يوم قدم الى الملك لصان متشردان ، ضربا فى فنون الاحتيال السهم ، وذهبا فى صنوف الخداع كل مذهب ، وتظاهرا أنهما أستاذان مبرزان فى النسج والحياكة ؛ فأقبل عليهما الملك بسمعه وبصره . ثم قالا له : « أيها الملك المعظم ، إنا نريد أن نقدم لك خدمة جليلة ، إذ أنت بها خليق ، وهى بك أنسب ، إنا نستطيع أن نعد لك ثوباً شفيفاً جميلاً لا يراه عليك إلا من كان مخلصاً لك ، معجباً بك ، أو كفؤاً فى عمله ، قديراً عليه » .

فتهلل الملك واستبشر وقال : « لله دركما ياصديقى ، ما أكرمكما وما أجمل صنيعكما ، إننى ولا شك أصبح بما تنسجان وتحوكان بصيراً بأحوال الخلق جميعاً ، فأعرف من كان لا يحسن عمله ، ولا يصلح للقيام بما وكل اليه ، وأعرف كذلك المخلص من المخادع المداهن ؛ فابدآ من الساعة بهذا العمل الخطير ، وأنا أعرف كيف أجزل لكما العطاء » .

ثم أمر الملك أن يعطيا مبلغاً كبيراً من المال ، وأُخلى لهما قصر رحيب على مقربة من قصر الملك ، ثم انتشر الجند حوله

فهرس المجلد الأول من السنة الثانية

طلب الينا كثير من قرائنا أن نجعل للمجلد الأول من السنة الثانية للرسالة فهرساً خاصاً يجلد معه . ونزولاً على ارادتهم سنتحين الفرصة القريبة لطبع هذا الفهرس وتوزيعه